# حضرة الأستاذ

بقلم

صديق شيبوب

مر أكثر من ربع قرن على وفاة « يعقوب الكاتب » وأنا لا أزال أراه ماثلا أمام عينى . عرفته عندما كان فى أواخر العقد السادس من عمره ، وكنا نسميه « المعلم يعقوب » ، وكان تلاميذه وأصدقاؤه ينادونه « حضرة الأستاذ » . كان طويل القامة نحيل الجسم ، تنم عيناه الزرقاوان عن وداعة وحنان يشعان منهما وينسرحان على وجهه ولحيته البيضاء الطويلة . وكان يرى دائما ببدلته السوداء التى لم يغيرها منذ سنين حتى بهت لونها ، بل اخضر من فرط ما ضحكت عليها أشعة الشمس وعبثت بها الرياح والأمطار ، على أنها على تقادم العهد بها لا أثر فيها للأدران والأقذار ، كما يدل على نظافة «حضرة الأستاذ » وعنايته بكل ما يمد يدا اليه . وكان يقطع شوارع الاسكندرية متمهلا ، مطمئنا مفكرا ، يسلم أحيانا باحناء رأسه ، ولكنه اذا استوقفه أحد أصدقائه فى الطريق يسأله عن صحته استوقفه « حضرة الأستاذ » بدوره وتحدث طويلا

أما علومه فالصرف والنحو يتقنها فى لغات عديدة . فهو يستظهر « ألفية ابن مالك » و « أرجوزة اليازجى » وكتب النحو فى الفرنسية والانجليزية وله المام باليونانية القديمة . واذا سئل عن قاعدة جاء بها وبما يطابقها من اللغات الأخرى ، لأن المعلم يعقوب يعنى منذ أكثر من عشرين سنة بتأليف كتاب للتوفيق بين قواعد النحو فى كثير من اللغات ، وهو لا يزال بعد تلك السنين الطويلة فى أوائله ويرجو أن يرزقه الله فسحة من العمر لاتمامه . ويرى أنه سيكون لظهور كتابه رنة تتجاوب أصداءها أقطار المعمورة لأنه سيقلب طريقة التعليم رأسا على عقب ، ويجعل درس اللغات سهل التناول على مريديه .

ولما كان لا بد لكل أستاذ من أفكار فى الحياة وفلسفتها فقد كانت فلسفة « حضرة الأستاذ » حب الانسانية ،

بل حب كل ذى حياة وشعور ، لذلك كان يتقشف فى مأكله فلا يتناول غير النبات ، ولا يشرب المسكر ، ولايعاشر النساء ، واذ اضطر يوما الى أكل اللحم اكتفى بقليل من مرقه يثرد فيه بعض الخبز .

كان المعلم يعقوب فى شبابه يمتهن التعليم فى بعض المدارس حينا وفى منازل التلاميذ أحيانا فيساعدهم على تيسير الدرس والتحصيل ، كما كان يعلم أيضا بعض الأجانب الذين يهبطون وادى النيل ليعيشوا فيه ويريدون أن يدرسوا العربية حتى تستوى لهم سبل الحياة .

ثم أصبحت دروس المعلم يعقوب بعد أن تقدم به العمر مقتصرة على بعض الصغار من التلاميذ يلقنهم مبادىء القراءة . وكثيرا ما كانوا يستخدمونه لهذا الغرض من قبيل الشفقة والاحسان وكان أصدقاؤه وتلاميذه القدامى يوصون به خيرا بعض الأثرياء ويهيئون له السبيل حتى يكسب القليل من المال الذى يحتاج اليه فى حياته المتواضعة

وهكذا أوصى به أحد أصدقائه السيدة « هدى فاخر » المحسنة الكبيرة التى فقدت زوجها بعد زفافها اليه بشهور فانقطعت الى العناية بتربية ابنها الذى رزقته منه وتنشئته الى أعمال البر والاحسان ومؤاساة المرضى والمحتاجين .

عهدت السيدة هدى الى المعلم يعقوب تعليم ابنها الصغير مبادىء قراءة العربية وصارت تراه آتيا فى كل صباح نحو الساعة العاشرة ببدلته السوداء الخضراء ولحيته الطويلة البيضاء التى تجعله كأنه شبح من أشباح الماضى انحدر من عهده السحيق ليعيش فى زماننا الحاضر ولاحظت أنه لا يتقيد بموعد لدرسه فربما انقضت الساعة المحددة له والمعلم يعقوب لا يزال دائبا على تعليم تلميذه الصغير وتهذيبه . وقد دخلت السيدة هدى مرة غرفة تعليم ابنها فسمعت المعلم يعقوب يقول له : : « ان كل ما فى الطبيعة يعلمنا بأنه يجب أن نحب بعضنا بعضا » ، وسمعته مرة أخرى يقول : « يجب أن لا نستحل عذاب مخلوق ولو كان أصغر حشرة من حشرات الأرض » .

وقد تأثرت السيدة هدى ببشاشة وجه المعلم يعقوب مواظبته على درسه وعدم تقيده بموعد فسألت عنه وعلمت أنه يعيش فى غرفة على سطح أحد المنازل فى شارع ضيق قذر ، وأنه يأكل فى شبه مطعم فى ذلك الشارع حيث يعرفه الأهلون ويعطفون عليه . وسألت السيدة هدى المعلم يعقوب عن حاله وكيف يعيش فقال لها ان هناك سيدة عجوزا تغسل ثيابه وتعتنى بغرفته فتنظفها وترتبها ولكنه شكا منها أنها سيئة الخلق ، سريعة الغضب كثيرة المهاترة . وأنه يتحمل منها كل هذا بصبر لأنه لا يجد من يقوم مقامها ولأنه يؤمن بالخير ويرجو أن تصلح معاملتها مع الوقت .

فرثت السيدة هدى لحاله وأخبرته بعد أيام أنها زادت فى مرتبه فرفض هذه الزيادة لأنه لم يصل بتلميذه الى حد من التعليم يبررها .

فى يوم من أيام الشتاء الباردة خيل للسيدة « هدى فاخر » وهى ترى حضرة الأستاذ يدلف الى غرفة التعليم أن عينيه قد جمدتا فى وجهه ، وأن لحيته

اصبحت جنيها ، وأن يديه تتحركان بصعوبة شديدة · فشعرت بكثير من العطف عليه · وجعلت تفكر لعلها تهتدى الى طريقة لانقاذه من حالةالبؤس التى يتخبط فيها · وكانت تعلم أنه سيرفض أى اعانة مالية تقدمها له كما رفض من قبل زيادة مرتبه ·

وفيما هى تفكر فى ذلك وقع نظرها فى دهليز المنزل على معطف معلق فيه وقد حال لونه وتغير شكله ، وهو يحدث عن الأمطار التى هطلت عليه والرياح التى لعبت به ، كما يحدث عن الليالى الباردة التى تحول فيها الى غطاء يساعد على الدفء · فتأملت السيدة هدى هذا الدثار وقالت فى نفسها انه لا شك سيقبل هو ما يرفضه صاحبه · وهكذا أخذت قطعة منالنقود ودستها فى جيبه وعزمت أن تضع فى كل يوم قطعة مثلها تساعد بها المعلم يعقوب المسكين على مكافحة مضض الحياة ·

لاحظت السيدة هدى أن قطعة النقود لا تزال فى مكانها فى اليوم الثانى وكذلك فى اليوم الثالث · ولما تفقدتها فى اليوم الرابع لم تجدها فوضعت مكانها قطعة أخرى مثلها وهكذا فى الأيام التى تلتها · وقد حاولت أن تقرأ فى عينى حضرةالأستاذ من الارتياح أو الشكر أو التعجب فلم تجد لذلك أثرا ·

على أنها لم تملك نفسها أن سألته ثانية عن معيشته فبش فى وجهها ضاحكا وقال لها :

ـ ألم أقل لك يا سيدتى أن العالم سائر فى طريق الخير والصلاح ، وأنه يتحسن رويدا رويدا · لقد أخبرتك أمر العجوز التى تعتنى بثيابى وغرفتى وما هى عليه من سوء الطبع · أما اليوم فقد تغير سلوكها وحسنت أخلاقها وصارت لا تراني راجعا الى غرفتى حتى تسرع الى معطفى فتنتزعه عن كتفى وتأخذه الى حيث تنظفه مما علق به من الأدران وتجففه مما لحقه من آثار المطر ·